التقليد (١)

المراد من التقليد الذي ازمعنا الكلام فيه في هذا المقام أن يتبع الانسان غيره في أمر من الأمور ويحذو حذوه ويتشبه به وأظن انه تبادر الى اذهان بعض الاخوان ان التقليد الذي سأتكلم فيه هو التقليد في مصطلح علماء اصول الفقه عندنا معشر المسلمين أي التقليد في العقيدة والاعمال الشرعية. فالتقليد بهذا المعنى لا اقصد الكلام فيه اذ ليس هذا موضعهُ . وبعد فالتقليد بالمعنى المراد ههنا يجري في القول والفعل والاخلاق والعادات والآداب والاكل والشرب والملبس وسائر الامور التي تعتور الانسان والاحوال التي ترد عليه وتعرض له. فقد تقلد غيرك في قوله او فعله او اخلاقه او عاداته او آدابه او اكله او لبسه أو في ذلك كله

﴿سبب التقليد﴾ ان الباعث على تقليد الانسان غيرهُ هو اعتقادهُ فيمن يقلده الكمال كتقليد التلميذ استاذه والولد اباه والجاهل العالم . ويكون الباعث أيضاً على التقليد أن يكون المقلَّد ذا مقام رفيع ورتبة عالية صاحب سلطان واستيلاء فيظن المقلد ان المقلَّد لم يدرك ذلك الا بما اتصف به من الصفات وما استبهُ من السنن وانتهجهُ من المناهج فيسير على مثاله وينسج على منواله ويأخذ نفسهُ بتقليده في جميع اقواله وافعاله واحواله ومن هذا الضرب تقليد المغلوب للغالب والمولود للوالد والخادم للمخدوم

وقد فطن لذلك العلامة ابن خلدون وبيَّنه في مقدمته المشهورة حيث قال :

« فصل في ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده . والسبب في ذلك ان النفس ابداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه اولما تغالط به من ان انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء او لما تراه والله اعلم من ان غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وانما هو بما انتحلتهُ من العوائد والمذاهب تغالط ايضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للاول ولذلك ترى المغلوب يتشبه ابداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها واشكالها بل وفي سائر احواله وانظر ذلك في

(١) من خطبة للاستاذ عبد الله التلفيلي ياقا

الابناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم داعاً وما ذلك الا لاعتقادهم الكمال فيهم » آه

واذا نظرنا في تقليدنا للغرب واقتدائنا به فانا نجد الباعث عليه السبب فيه الامرين اللذين ذكرناهما آنفاً وهما اعتقادنا في الغربيين الكمال وظننا انهم لم يبلغوا ما بلغوه من المقام الرفيع والسلطان الواسع الا لما انتحلوه من العادات والمذاهب وما سلكوه في افعالهم من المناهج

﴿منافع التقليد﴾ اذا عرفنا التقليد وسببهُ فيجدر بنا ان نعرف ما فيهِ من المنافع والمضار فان هذا هو لباب موضوعنا وزبدتهُ . لا ريب ان للتقليد منافع عظيمة وفي الاقتداء فوائد جسيمة يجب ان ندركها ونفطن لها اعترافاً بفضائل التقليد وتقديراً لمحاسنهِ ورداً على قوم نفروا منهُ نفرة السليم من الاجرب

انك لتبيّن فضل التقليد وتقر بمزيتهِ وحسنهِ اذا علمت ان الامم لا يمكن ان تحيا وتسعد وتبلغ حظها من العلم والمدنية والسؤدد الا باقتفاء بعضها أثر بعض واقتباس بعضها من بعض وتلقي بعضها عن بعض . والتاريخ أصدق شاهد على ذلك فان الغرب لم يبلغ ما بلغهُ من علم ومدنية وعمران وعز وسؤدد وسلطان الا بعد ان اختلط بالعرب في الشام في الحرب الصليبية وجاورهم في الاندلس فتلقى عنهم العلوم والمعارف واقتبس منهم الفضائل والمحاسن كما اقر بذلك مؤرخو الغرب ونوهوا بهِ. أفرأيت لولا التقليد الغرب للعرب أكان يستيقظ من غفلتهِ وينهض من كبوتهِ . كلا

وتتبين فضل التقليد وتقر بمزيتهِ وحسنهِ اذا سألتك أي ثمرة تجني من درسك التاريخ وتصفح تراجم العظماء ومطالعتك سير الملوك والامراء فقلت ان اعظم ثمرة اجنيها من ذلك ان اقف على العادات والمذاهب التي انتحلها العظماء حتى صاروا عظماء فأقتدي بهم في ذلك واسلك سبيلهم واقتدي بهم حتى اصير مثلهم وابلغ مبلغهم وليت شعري من ينازع في صواب تقليدك لرجل عظيم فيما صار بهِ عظيماً ومن يرتاب في منفعة ذلك غير من لا يميز الصواب من الخطأ والمنفعة من المضرة

﴿مضار التقليد﴾ لا ريب ان قوام الامم امران اللغة والعادات فاذا ذهبت من امة لغتها وعاداتها فقد ذهبت وزالت. فلو فرضنا ان شعباً من الشعوب العربية الآن صارت لغتهُ وعاداته انكليزية فانهُ بلا شك يكون قد باد وانقرض فان انقراض الامم هو دخولها في غيرها واندماجها في سواها وليس انقراض الامم وهلاكها فناءها بالموت فحسب كما هو كذلك في الافراد . واذا كان كذلك فان من اشد الاخطار

على الامم الشرقية ان تفرط في التقليد وتغلو حتى تفقد لغاتها وتنسلخ من آدابها وعاداتها فتتخلع من خصائصها ومقوماتها وفصولها ومميزاتها

فعلى هذه الامم اذا ارادت البقاء ورغبت الحياة ان تحرص على لغاتها الحاملة لآداب اسلافها وعلومهم ومعارفهم وحضارتها وان تحتفظ باحسن عاداتها واطايب آدابها وصفاتها ولو عليها ان تقتبس من الغرب الخلال الحميدة والعادات الممدوحة وتقلد الغرب في الجد والسعي والثبات وصدق العزيمة وقوة الارادة

وفرط الرغبة في العلم وبذل المال لنشره وايثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة والتحاب والتعاون وتعليم المرأة واحترامها الى غير ذلك من الفضائل التي تحيي الامم حياة طيبة وتعيش بها عيشة راضية

اما تقليدنا للغربيين تقليداً اعمى والجرى خلفهم على غير هدى اعتقاداً منا الكمال فيهم وظناً منا انهم لم يبلغوا ما بلغوا الا بما هم عليه من العادات والمذاهب وما هم فيه من الازياء والاحوال فذلك صائر بنا الى الردى وسوء العقبى

انهُ لجدير بنا ونحن نرى انفسنا ذوي عقل وبصر الا نقلد الغرب في كل ما انتحلوه بلا تروٍ ولا تبصر ومن غير ما نظر فيما نحن مقلدوهم فيه اهو حسن او قبيح وضار او نافع وصواب او خطأ وملائم لبيئتنا او غير ملائم ومطابق لتقاليدنا وآدابنا او غير مطابق فان ذلك سبيل من لا عقل لهُ ولا بصر

ان عقلاء الغرب اليوم وحكماءهُ هبوا يقبحون كثيراً من عادات اقوامهم ويهجنون كثيراً من مذاهبهم ويعيبون كثيراً من ازيائهم واحوالهم وينذرونهم بقرب زوال حضارتهم وذهاب علومهم ومعارفهم وغروب شمسهم وتبدد نظامهم . فهل لنا ان نتعظ باقوال هؤلاء العقلاء ونستشفي بحكم اولئك الحكماء

وكما ان تقليدنا للغرب في كل الامور تقليداً اعمى قبيح ومعيب فان اقتصار قوم منا على تقليدهم في خلال لا تنفع بل تضر وتوقع الثغرة منهم في القلوب والوحشة في النفوس اكثر قبحاً وعيباً وذلك كالعكوف على الملاهي والاسراف في معاقرة الخمر والتشبه بهم في الملابس والمآكل والتبرج وما اشبه ذلك

فلندع تقليدهم في مثل هذه الخلال ولنتنق من اخلاقهم وعاداتهم احسنها واطيبها ولنتخير من مواردهم اصفاها واعذبها فان ذلك اقوم سبيلاً واحمد عاقبة وما لا